صفي الدين الحلي

—«✲»—

هو الشاعر المطبوع أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا الشهير بصفي الدين الحلي .

والحلة المنسوب اليها الشاعر هي حلة بني مزيد ، وتسمى حلة بابل لوقوعها قرب بابل القديمة الى الجنوب ، الا أن أطلال بابل على شاطئ الفرات الشرقي ، والحلة على شاطئه الغربي شمالي أطلال الكوفة ولا تزال الحلة عامرة الى عصرنا ، وبنو مزيد أصحابها بطن من بني أسد بناها منهم الامير سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس (كزبير) ابن علي ابن مزيد الاسدي سنة ٤٩٥ في مبدإ الدولة السلجوقية . وكانت من أرقى مدن العراق غير أن توارد الاعراب عليها ونزولهم بها جعلها كثيرة الفتن والحوادث

الحالة السياسية والاجتماعية في عصره

نشأ المترجم في عصر الدول التركية التي كان سلطانها حينئذ يمتد من شواطئ المحيط الاعظم (الهادي) الى برقة غرباً ، ومن شواطئ المحيط القطبي الشمالي الى حوض الكنج واليمن ودنقلة جنوباً ، ولو كان هذا الملك العظيم مستظلاً براية واحدة ومحكوماً بنظام واحد لنشأ في أحضانه أسمى حضارة شهدها سكان كوكب الارض ، ولكن سلطان هذا الجيل التركي لم يكن متوحداً الا في الجذم الطوراني وأصول اللغة ، وكان متقاطعاً في الدين والمذهب ، متدابراً في أصول الحكم والسياسة متفنناً في اختراع صنوف الظلم والقسوة ، فلم يجر على العالم الا الفتن المبيرة واختفاء آثار الحضارات السابقة لحكمه ، فتكونت منه دول لا تحصى من التتار في الصين وشمال آسيا وأواسطها وشرقي أوربة ، ومن بقايا السلجوقيين في الجزيرة وآسيا الصغرى وشمالي الشام ، ومن المماليك التركانية بالشام ومصر وبرقة والنوبة والحجاز . وكان ملوك كل دولة من هذه الدول الكثيرة يحكمون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البلاد بولاة وعمال من الترك مؤيدين بجيش من جنسهم وكان من الرعايا المقهورين كل رجال القضاء والادارة وجباية الاموال واعمال الري والعمارة . وفي الجملة أكثر أرباب الاقلام والادباء والمدرسين والمؤلفين ، ولذلك كان تأثير سلطانهم في اللغات الوطنية وآدابها ضعيفاً بالاضافة الى تأثيره في اضطراب الأمن وزعزعة أركان الحضارة القديمة ، ولذلك بقيت اللغة والآداب الصينية غالبة على مغول الصين ، والفارسية غالبة على مغول فارس وأواسط آسيا وعلى بقايا السلجوقيين فيها ، والعربية غالبة على الدويلات المتشعبة من السلجوقية في العراق والجزيرة وعلى دولة المماليك بمصر والشام ، ومن تلك الدويلات دويلة كان ملوكها سلالة مملوك تركي من مماليك (ملك شاه السلجوقي) يدعى (أرتق) .

صرف شاعرنا أكثر عمره في خدمة ملوكها . وكان الشأن في كل أسرة ملكية من الترك في العراق والجزيرة ومصر والشام اذا طال أمد حكمها في بيئة عربية أن يستعربوا أو يلموا بالآداب العربية ، فيروج عندها الادب العربي بعض الرواج ويعجبهم تأليف الكتب بأسمائهم ، وربما اتخذوا من أدباء العرب بطانة لهم وندماناً وسماراً ، بل ربما نظم بعضهم الشعر لهذا نجد شاعرنا ينتقل أحيانا في العراق والجزيرة والشام ومصر ويعيش بالادب ، ونجده يكثر في شعره من وصف غلمان الاتراك لكثرتهم في زمنه وامتلاء اسواق الرقيق بهم مما يسببه المغول في غاراتهم على شمالي آسيا وشرقي أوربة ، وكثر في شعره الطرديات لولع الترك بالصيد .

نشأته :— ولد المترجم سنة ٦٧٧ هـ بمدينة الحلة من أسرة عربية من قبيلة سنبس احدى قبائل طيء ، وكانت عشيرته على اشتغال كبرائها بالفقه والأدب على حالة بداوة : تحمل السلاح ، وتشترك في الغارات والحروب ، وتطالب بالثأر ؛ فنشأ المترجم نفسه على هذه السجايا ، فتأدب على أهله وعلماء بلدته وعلماء بغداد لقربها منها وشب مطبوعاً على قول الشعر ينظمه تأدباً وتطرباً لا استجداءً به وتكسباً كما قال هو عن نفسه .

وحدث في شبيبته ان شبت فتنة بين أسرته المسماة آل محاسن وبين أسرة أخرى تسمى آل ابي الفضل فاغتال آل ابي الفضل خالاً له يدعى صفي الدين ابن محاسن : قتلوه في مسجده ، وكانوا أقوى من أسرة المترجم ، فأعمل صفي الدين لسانه وقلمه وقصد أمراء النواحي ورؤساء العشيرة يستنجدهم على أخذ ثأر خاله من آل ابي الفضل ؛ وحدثت بين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفريقين موقعة انخذل فيها آل ابي الفضل فافتخر صفي الدين هو وعشيرته باخذ ثأرهم من عدوهم . فذلك حيث يقول في مطلع قصيدته الشهيرة :

سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

الا ان هذه الموقعة لم تكن خاتمة الفتن ، بل بقيت العداوة يحتدم أوارها ويشتد أذى آل ابي الفضل على المترجم وأُسرته حتى أزعجوه عن المقام في بلده ، وخشي غائلتهم ؛ فخرج مهاجراً حتى ألقى عصاه في مدينة ماردين من إقليم ديار بكر بارض الجزيرة الفراتية مستظلاً بحماية ملوكها من بني أُرتق « كقلقل » وهم ملوك دولة من فروع الدولة السلجوقية دخلوا في طاعة التتار وحاسنوهم فأبقوهم على حكم ماردين وإقليم ديار بكر . ومؤسس ملكهم أُرتق الكبير وهو مملوك شجاع من مماليك آل سلجوق . وعاصر المؤلف منهم الملك المنصور نجم الدين غازي وولده الملك الصالح ، وعاملاه معاملة كريم مستجير بهما لا معاملة شاعر مستجد . وكتب الى أهله بالحلة عند وصوله الى ماردين يقول :

ألا بلغ هُديت سراة قومي بحلة بابل عند الورود
الا لا تشغلوا قلباً بعدي فاني كل يوم في مزيد
لاني قد حللت حمى ملوك ربوع عبيدهم كهف الطريد
فمن يك نازلاً بحمى كليب فاني قد نزلت حمى الاسود

وبقي في كنف الملك المنصور غازي يمدحه وينادمه حتى مات المنصور سنة ٧١٢ ومدحه بجملة مدائح منها القصائد المسماة بالأُرتقيات ، وهي تسع وعشرون قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم يبدأ في كل بيت منها بحرف وبه يختم أي يكون روياً ومبدأ وجعلها ديواناً سماه « درر النحور في مدائح الملك المنصور » ثم كان في خدمة ولده الملك الصالح فخف على قلبه ومزجه بنفسه واصطفاه وأسبغ عليه نعمته وجعله في خاصة بطانته ينادمه ويؤانسه ، ويخرج معه الى الصيد والوقائع ، وطاب له العيش في ماردين ، ووفرت نعمته واقبل على اللهو والطرب ونظم الشعر في الغزل والخمريات والدعابة والمجون حتى اذا ناهزت سنه الخمسين عزم على المتاب من شرب الخمر وارتكاب الآثام ، وجعل باكورة التوبة الرحلة لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام سنة ٧٢٤ هـ ودخل مصر بعد حجه سنة ٧٢٦ وسلطانها يؤمئذ الملك الناصر محمد بن قلاوون ووزيره وكاتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سره القاضي علاء الدين بن الاثير الجزري الكاتب المؤلف المشهور ، فمدحه ومدح الناصر بقصيدة طنانة عارض بها قصيدة ابي الطيب « بابي الشموس الجانحات غواربا » ومطلعها:

اسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا

فأغدق عليه نعمه وهداياه . ثم رحل الى الشام فنزل بدويلة من بقايا آل أيوب مستظلة بحماية سلاطين مصر من آل قلاوون ، وتحكم مدينتين او ثلاثاً من مدن وادي العاصي وحاضرتها مدينة «حماة» وكان سلطانها في ذاك الوقت الملك المؤيد ابو الفداء عماد الدين اسماعيل مؤلف كتاب « تقويم البلدان » والتاريخ المسمى « المختصر في أخبار البشر » فنزل ضيفاً عليه فأكرمه ، وبقي أثيراً عنده مدة ، ويظهر من مراثيه ومدائحه ومكاتباته انه أقام بالشام عدة سنين ، ولقي بدمشق الشهاب محموداً الحلبي وابن نباتة المصري . وتكسب فيها بالتجارة . ثم لحق بمخدومه بماردين بعد غيبة طويلة . وصار يختلف الى بلاد الجزيرة وبغداد والشام ويراسل أدباءها ويمدح ملوكها ويرثيهم . ولم نعلم عن يقين البلد الذي مات به ونرجح أن تكون وفاته بماردين . ومات سنة ٧٥٠ هـ .

علمه وأدبه . — كان علم صفي الدين لا يعدو اللغة وآدابها وكان يحفظ كثيراً من شعر المتقدمين المجودين في اللفظ والأسلوب من أمثال ابي نواس والبحتري وابي تمام وابن الرومي وابن المعتز ، فأثرت فيه خمريات ابي نواس وغلامياته وأثرت فيه أوصاف ابن المعتز وطردياته ، وكثيراً ما أغار على معاني هؤلاء ، ولم يكن علمه بغريب اللغة ولا تاريخ العرب في جاهليتهم واسلامهم موازياً لشهرته بالادب ولا بافتخاره بالانتماء الى سنبس من طيء ، ومبلغ علمه من الادب واللغة أنه حفظ الكثير من الشعر فاكسبه ملكة قلما تهيأت لاحد في عصره .

ذكاؤه وتوقد خاطره . — كان صفي الدين على جانب عظيم من توقد الخاطر وسرعة البديهة يعرف ذلك من قرأ ديوانه فرأى فيه الكثير من غرائب الصناعة البديعية كالاكثار من عجيب التصحيف وما لا يستحيل بالانعكاس والاكثار من القصائد المهملة الحروف والمعجمتها المصغرة الالفاظ وذوات القافيتين وضوابط الشطرنج والعلوم ، ولو انه بذل بعض هذا الجهد في استخلاص لباب اللغة والغوص على المعاني الرائعة لبذ المتقدمين ، ولكن هكذا كان دين أهل عصره ورغبتهم من الادب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخلاقه .— نشأ صفي الدين في الحلة على فطرة عربية من الشيم وإباء الضيم ، وحب الانتقام والاخذ بالثار ، وشهود المعارك والرغبة عن ذل السؤال ، ونظم الشعر للتطرب والرياضة لا للاستجداء كما يتحدث بذلك عن نفسه في مقدمة ديوانه وكما يستخلص من قراءة شعره في شبابه غير انه لما لحق بخدمة متأخري آل أرتق قبيل انتهاء دولتهم ، وكانوا أهل ترف وانهماك في اللذات ومعاقرة للخمر ولهو بالصيد والقنص اعتاد من عاداتهم ، ونادمهم في مجالسهم ، وتغزل في غلمانهم . وأفحش وفجر . ولما علت سنه عزم على التوبة والنسك وحلف الا يشرب الخمر ، ولكنه نقض التوبة مراراً فعاد وشربها مضاةً للامراء والرؤساء .

ومن الغريب في امره تصريحه في قصيدة خمرية ذكر فيها تنغيص شهر رمضان على الشاربين لذاتهم بان لا ينسك الا بعد ٦٨ سنة من عمره وذلك حيث يقول منها :

فيه هجر اللذات حتم وفيه (غير مستحسن وصال الغواني)

وقبيح فيّ التنسك الا (بعد ستين حجة وثمان)

ولا أدري سبباً لارجاء التوبة النصوح الى هذا السن المضبوطة بالعدد الا تضمينه شطري مطلع القصيدة التي بعث بها الشريف ابو ابراهيم موسى بن اسحق الى ابي العلاء المعري وهذا هو المطلع :

غير مستحسن وصال الغواني بعد ستين حجة وثمان

فأجابه ابوالعلاء بنونيته الشهيرة التي مطلعها :

عللاني فان بيض الاماني فنيت والزمان ليس بفان

ولا ندري على اي حال انتهت حياته ، وكان الحلي يتشيع نوع تشيع يترضى عن الصاحبين ، وينكر على الأمويين والعباسيين جد الانكار ، وتلك نزعة قديمة العهد في أعراب الفرات والجزيرة منذ عهد علي ومعاوية وأرسخها فيهم وجود مشاهد النجف وكربلاء بين ظهرانيهم .

شعره .— نشأ صفي الدين في القرن الذين خلفوا قرن القاضي الفاضل وانتحلوا طريقته في التهافت على استعمال المحسنات البديعية والشغف بها شغفاً أخرجهم عن قصد البلاغة فكان معاصراً لكثير من كبار ادبائهم وشعرائهم ومؤلفيهم من أمثال شهاب الدين محمود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحلبي وابن فضل الله العمري وابن نباتة المصري وصلاح الدين الصفدي وعلاء الدين بن الاثير والملك العالم المؤرخ الاديب مؤيد الدين صاحب حماة ، فكان صفي الدين علماً شامخاً بين هؤلاء الاعلام معترفاً له بالسبق في فنون من الشعر والاجادة في أخرى ، وكلهم كاتبه وراسله وعارضه وعابثه فاذا وازناه بهم واحداً واحداً من كل وجه طال بنا المقام ، ولكنا نشير اليك هنا بأن شهاب الدين كاتباً ومؤلفاً أرجح منه شاعراً وأن صناعته في الكتابة أروع من صناعة صاحبنا: فصفي الدين اشعر منه واكثر طروقاً لفنون الشعر وأبوابه وأن ابن فضل الله العمري امام لايجارى في الادب والتاريخ ووصف الارضين والشعوب والملل والنحل وكتابة الترسل ، وصفي الدين في غير الادب ليس هناك فهو يفضل ابن فضل الله في الشعر ويفضله في كل ما تقدم ، وأن الصفدي وان كان ذائع الصيت في الشعر وانتحال البديع الا أن التأليف غلب عليه ، فزاحمت ملكة التأليف وتقرير الحقائق ملكة الشعر وانتزاع الخيال وبذلك يكون صفي الدين أشعر منه وأطبع في الشعر ، وكذلك شأنه مع ابن الاثير . بقيت الموازنة بينه وبين ابن نباتة وهما متشابهان في كثير من الامور ، فهما شاعران مطبوعان غلبت فيهما ملكة الشعر على كل صناعة ادبية ، بل كانا أشعر شعراء المشارقة في عصرهما ويمتاز ابن نباتة برقة اللفظ ، ومراعاة الذوق الادبي ، ودقة النكتة ، ولطف الكناية والتعريض ، وليس ذلك فيه بعجيب ؛ فهو مصري صميم تخرّج بشعر القاضي الفاضل ، وابن سناء الملك ، والبهاء زهير ، وابن مطروح ، وابن قلاقس الاسكندري ، فانطبعت في شعره صورهم وتقمصت به أرواحهم ، وبرع ابن نباتة في التورية جد براعة حتى لم يبق لاديب معه فيها كبير نصيب ، ولم تقل كتابته على الطريقة الفاضلية عن شعره كثيراً ؛ فهو كاتب بديعي بارع متكسب بصناعة الكتابة والترسل في دواوين مصر والشام .

واما صفي الدين فشاعر بديعي صقيل اللفظ رائع الاسلوب متفنن في كل غرض صاحب مقطعات ومطولات ومسمطات وموشحات وينظم من أوزان العرب والمولدين ، ويقول الدوبيت ومجزو الدوبيت . وهو من الغلاة في البديع فيجيد المطولات المؤلفة كلماتها من الحروف المهملة تارة والمعجمة أخرى أو التي حرف منها مهمل وحرف معجم أو التي كلمة منها مهملة والاخرى معجمة أو التي كل أسمائها مصغرة ، أو لاتستحيل بالانعكاس ، ثم هو بعدُ غاية في الجناس ، الا أنه ليس له في التورية كثير غناء ولكن الاديب الحاذق يري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن كل ماامتازبه الحلي داخل في باب التكلف والتحذق لافي باب الانطباع والرقة والرشاقة .
وبذلك يُفضّل ابن نباتة في جملته علي الحلي في جملته .

« للبحث صلة » احمد الاسكندري